نظرة جديدة حول البحث الأثري في الجزائر
الساحل الغربي الجزائري

د. عبد القادر دراجي

مقدمة:

تميزت الدراسات الأثرية بالجزائر بنوع من الذاتية، فمعظم البحوث الأثرية كانت موجهة. فبالرغم من التنقيبات والمنشورات التي خصّت مختلف المراحل التاريخية للجزائر، تبقى معظمها مقتصرة على جهات معينة، حيث تم توجيه البحث نحو ترسيخ ايديولوجية المستعمر، الذي ما فتئ أن ربط الحضارات والثقافات المتعاقبة بالعنصر الأجنبي.

إنطلاقا من المعطيات السابقة، إرتأينا أن نختار منطقة الساحل الغربي للجزائر(1) لكونها لم تخضع لدراسات مختصة وكافية ومن

---

(1) - مشروع بحث: الأعضاء بوسعدية ابراهيم ومحمد مديق.

جهة أخرى لموقعها الاستراتيجي بالنسبة للبحر المتوسط.

وفي هذا الصدد سنقوم بدراسة متعددة التخصصات تشمل كل من الريادة والحفريات المنتظمة.

وفي إطار دراستنا سنحاول تسليط الضوء على المراحل التاريخية الإنتقالية في ظل مفهوم الحركية البشرية.

يكون منطلق الدراسات انطلاقا من المحاور الأساسية التالية:

1 - الجانب الوثائقي والمونوغرافي.

2 - دراسة المجاري المائية الأساسية والمتمثلة أساسا في وادي الشلف، وادي ميناء، ووادي التافنة.

3 - وضع جرد عام وخرائط لمختلف المواقع الأثرية.

4 - العنصر السكاني كمنشط أساسي للثقافات أو الحضارات.

1 - الجانب الوثائقي والموتوغرافي

يتشمل هذه المرحلة في الدراسة وضع حوصلة عامة من خلال الدراسات المختلفة التي أقيمت على منطقة الساحل الغربي الجزائري بصفة خاصة والجزائر بصفة عامة.

ويشمل هذا الجانب أيضا استعمال الشواهد المادية خاصة تلك المتعلقة بالفترات التاريخية.

2 - دراسة المجاري المائية:

سنتطرق إلى هذا المحور الهام في إطاره الطبيعي، الطوبوغرافي، الجيولوجي والأثري.

من خلال دراسة الشطوط النهرية القديمة يمكننا التعرف على بقايا لآثار ما قبل التاريخ، خاصة تلك التي تعود إلى العصر الحجري القديم الأسفل.

تعدّ المجاري المائية كعامل أساسي وإستراتيجي في استقرار الإنسان، فالعامل الحيوي المتمثل في الماء، كان الدافع الرئيسي في استقرار الإنسان منذ الفترات الأولى من الانسانية.

وفيما يتعلق بالناحية الغربية، عرفت المجاري المائية الثلاثة: وادي الشلف، وادي ميناء، ووادي التافنة تعاقب عدّة حضارات وهذا منذ الفترات التاريخية الأولى.

إرتأينا التركيز على هذه الأودية للتعرف وجمع الأدلة المادية المتعلقة بالملاحة النهرية (الموانئ والأرصفة) خلال الفترات القديمة سواء في الفترة ما قبل الرومانية أو الرومانية.

وليس من باب الصدفة أن نجد عدة مدن على ضفاف هذه الأودية على سبيل المثال نذكر المدينة القديمة لكيزا بالقرب من بلدية بلعيطار على الصفة اليمنى لوادي الشلف.

وعلى وجه الخصوص سنحاول التعرف أكثر على الجانب الفلاحي والاجتماعي ومن ثمة على مختلف طرق المواصلات والمبادلات التجارية.

3 - الجرد العام للمواقع الأثرية:

في البداية، نضع حوصلة عامة من خلال الأبحاث والدراسات التي أجريت على المنطقة. وانطلاقا من الأعمال الميدانية والمتمثلة أساسا في الزيادة المنتظمة، فسعى إلى التعرف أكثر على كثافة المواقع الأثرية.

من حيث المنهجية، سنقوم بوضع بطاقات خاصة بكل موقع ثم نصل إلى مرحلة ضبطها على خرائط طوبوغرافية ذات مقاييس مختلفة.

4 - العنصر السكاني (الدراسة الأنتروبولوجية)

تعتبر الدراسات الأنتروبولوجية الفزيائية منها، كمنهج أساسي في التعرف على العنصر السكاني سواء في الفترات الأولى من البشرية أو خلال الفترات التاريخية.

في الجزائر، تعود أقدم البقايا البشرية إلى أكثر من 600 ألف سنة، ثم التعرف على حطام للفكوك وأسنان في موقع تغنيف من طرف

الباحث أرمبورغ Aramboug, 1954.

منذ هذه الفترة عرفت الجزائر عدة مواقع أخرى سواء تعود لنفس المرحلة الكرونولوجية أو لفترات أقل حداثة ولعل البقايا البشرية التي تعود إلى العصر الحجري القديم المتأخر، تكون أكثر كثافة وانتشارا وتشمل أساسا عنصرين:

- مشتى أفلو والفجر المتوسط.

- انطلاقا من الفترات التاريخية، سيسود العنصر السكاني شكل فجر المتوسط.

إذن، فإستعمال الأنتروبولوجية في دراسة الحضارات والثقافات المتعاقبة بإمكانها أن تدعم أو تقلل من أهمية التواصل الحضاري في الجزائر وتصب هذه الدراسات ضمن مفهوم الباليوديمغرافيا ولا ننسى أن نأخذ بعين الاعتبار عوامل أخرى، منها الاتصال التأثيرات والإختلاط.

حوصلة:

هذه عبارة عن لمحة وجيزة عن المشروع الذي سنقوم به في منطقة الساحل الغربي الجزائري ولعل توجيه المشروع سيكون مركزا على المراحل الانتقالية المختلفة لا سيما تلك المتعلقة بفترة فجر التاريخ التي

تبقى غامضة سواء من الناحية البقاية أو الكرونولوجية خاصة في هذه المنطقة حيث تكاد أن تكون منعدمة فيها.

ولعل فهم المرحلة لما قبل الرومانية تكون مشروطة بتغيير توجيه البحث من الآثار العمرانية (Archéologie Urbaine) إلى الآثار الريفية التي أهملت عمدا في السنوات السابقة.

ولا يمكننا التوصل إلى دراسة موضوعية دون الأخذ بعين الاعتبار كل العوامل المؤثرة في التطور الحضاري المستمد من نمط المعيشة التي عرفتها المجموعات السكنية منذ الفترات الأولى.